مجلة رؤى للدراسات المعرفية والحضارية — المجلد: 08 / العـدد: 01 (2022)، ص 06 – 25

الرؤية الاجتماعية في روايات يوسف إدريس

(الحرام والعيب والعسكري الأسود)

Social vision in the novels of Yusuf Idris
(The forbidden, The fault, The black military)

د. أحمد علي جودة[1]

[1] جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمان – الأردن، Ahmad.Joudeh@wise.edu.jo

تاريخ الاستلام: 2022/02/26 تاريخ القبول: 2022/06/08 تاريخ النشر: 2022/06/30

ملخص:

يدور هذا البحث حول الرؤية الاجتماعية في روايات يوسف إدريس، وهي صيغة من صيغ الواقعية التحليلية التي تدرس العلاقة بين الفرد وتفاعله في مجتمعه، مُظهرة الجانب النفسي وصراعه الاجتماعي مع المجتمع الذي يُجبره على المعاناة وارتكاب الخطيئة خوفاً واضطراراً. وقد تناول ثلاث روايات ليوسف إدريس هي: الحرام، والعيب، والعسكري الأسود، وجميع هذه الروايات تظهر فيها الرؤية الاجتماعية مما يجعلها نموذجاً صالحاً لهذه الدراسة.

ويلحُّ يوسف إدريس فيها على موقف التعرية الذي يحمِّل موقف الإدانة بشكل غير مُباشر للطبقة البرجوازية والنظام السياسي، وأيضاً لنظرة المجتمع لهؤلاء المهمشين بأنهم ليسوا بشراً. وقد استخدم البحث المنهج الوصفي التحليلي كمنهج مناسب للدراسة.

الكلمات المفتاحية: الرؤية الاجتماعية، يوسف إدريس، الحرام، العيب، العسكري الأسود.

Abstract:

This research revolves around the social vision in the novels of Youssef Idris, which is a form of analytical realism that studies the relationship between the individual and his interaction in his society, showing the psychological aspect and his social conflict with society that forces him to suffer and commit sin out of fear and compulsion. The research dealt with three novels by Youssef Idris: the forbidden, the defect, and the black military, and all of these narrations show the social vision, making it a valid model for this study.

In it, Youssef Idris insists on the position of nudity, which indirectly condemns the bourgeois class and the political system, as well as the society's

view of these marginalized people that they are not human. The research used the descriptive analytical method as an appropriate method to study.
Keywords: Social vision, Yusuf Idris, The forbidden, The fault, The black military.

* **المؤلف المرسل**: د. أحمد علي جودة، **الإيميل**: Ahmad.Joudeh@wise.edu.jo

1. مقدمة:

العمل الروائي يصف الحياة في المجتمع، وتصبح الرواية مرآة عاكسة لما في المجتمع من خير أو شر، يقوم بوصفها راوٍ مُبدع، يضع يده على الألم ويصف العلاج الذي يُداوي به.

يرى رولان بارت في بعض كتاباته، أنَّ الرواية عمل قابل للتكيف مع المجتمع؛ وأنَّ الرواية تبدو كأنَّها مؤسسة أدبية ثابتة الكيان. فهي الجنس الأدبي الذي يُعبِّر عن مؤسسات مجموعة اجتماعية، وبنوع من رؤية العالم الذي يجره معه، ويحتويه في داخله (مرتاض، عبد الملك، 1998، ص37) ومن هنا نستطيع أنْ نقول، أنَّ الواقعية ليست طريقة خاصة للعمل الفني، ولكنها طريقة خاصة للارتباط في الحياة، وغاية الواقعية تزويد الإنسان بصوت ورؤية لهذا الموقف مهما كان تعلقه واقعياً وقابلاً للتحقُّق.

ويتفق الأدباء والمفكرين الواقعيين أنَّ البطل في أيِّ رواية يجب أن يكون المجتمع أو شريحة واسعة منه لا الفرد، فالمجتمع هو البطل الذي من خلاله يرجع الحق إلى الأفراد، وأنَّ المأساة في حياة الأفراد يخلقها المجتمع إذا لم يأخذ دوره الإيجابي في حماية أفراده. فالأدب هو منْ يُدين ويُعرِّي المجتمع ويُوجِّهه للدفاع عن الفقراء، حتى لا تفترسهم الطبقات الغنية والأنظمة السياسية وتُحيلهم لحُطام وضحايا بعد أنْ يفرغوا من استغلالهم لتحقيق مصالحهم على حساب هؤلاء المساكين المهمَّشين.

وهذه الدراسة تلقي الضوء على الرؤية الاجتماعية في ثلاث روايات لِيوسف إدريس وهي: الحرام 1959م، العيب 1962م، العسكري الأسود 1962م.

1.1. أهمية الدراسة: تظهر أهميتها بما قام به يوسف إدريس في رواياته الثلاث، فقد ألحَّ على تعرية وإدانة المجتمع والنظام السياسي والطبقة البرجوازية الصغيرة التي خلقت المعاناة للفقراء والمهمَّشين، وتسببت إمَّا بموتهم، أو جنونهم، أو عُهرهم وسقوطهم في الرذيلة... في مرحلة زمنية من مراحل الحكم في الدولة المصرية.

1.2. مشكلة البحث: تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على الرؤية الاجتماعية في الواقعية التحليلية في روايات يوسف إدريس، والتي تبناها العديد من أُدباء الشعب العربي أمثال عبدالرحمن الشرقاوي ويوسف إدريس وحنا مينة وصالح مرسي وعبد الستار خليف وغيرهم من الذين يؤمنون بدور المجتمع كقوة مؤثرة في إرجاع الحق لأصحابه ونشر المساواة بين الطبقات في المجتمعات الفقيرة، والوقوف بوجه الظلم المتمثِّل بالبرجوازيين والأغنياء وحتى السياسيين الذين يستبيحون لأنفسهم ظلم هؤلاء الفقراء والتعدي على حقوقهم وجعلهم يُعانون في حياتهم مُعاناة اقتراف الذنب والخطيئة، بالإضافة لما يُعانونه أصلاً من فقر وتهميش ونظرة المجتمع الدونية لهم. وإظهار الكادحين عند وقوعهم وارتكابهم المحرمات بأنهم مجنّي عليهم وليسوا جناة في مجتمعهم.

3.1. منهجية البحث: بناء على طبيعة المادة العلمية لهذه الدراسة فقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الذي يُحلِّل مواقف الشخصيات ونفسياتهم والأحداث التي يصنعونها؛ لإبراز الرؤية الاجتماعية في الروايات.

4.1. تساؤلات الدراسة: وحاولتْ الدراسة الإجابة على مجموعة أسئلة يطرحها النقاد:

س1: ماذا يريد يوسف إدريس بإلقاء الضوء على هذه الطبقات المهمَّشة في المجتمع؟

س2: كيف صوَّر يوسف إدريس أزمة أبطال رواياته؛ وهل هم مَجني عليهم أم هم جُناة في مجتمعهم؟

س3: هل الأزمة التي عاشها أبطال روايات يوسف إدريس أوصلتهم إلى الحرية والحياة السعيدة أم إلى التعهُّر والجنون والموت؟

5.1. الدراسات السابقة: لا يوجد حسب علم الدارس دراسات سابقة عالجت هذا الموضوع إلاَّ ما جاء في متن المؤلفات الأدبية والنقدية التي تناولت أدب يوسف إدريس بصورة مجملة، وقد رجع إليها الدارس في دراسته.

6.1. خطة الدراسة وهيكلها: اقتضت طبيعة الدراسة أن تأتي على مبحثين سبقهما مقدمة وتليهما خاتمة حوت النتائج وتليها المراجع.

2. الواقعية التحليلية والرؤية الاجتماعية لدى يوسف إدريس:

اتَّجه يوسف إدريس في رواياته إلى الواقعية التحليلية التي تدرس الحياة الاجتماعية وتتناول معاناة الناس فيه. "والواقعية التحليلية: صيغة فنية في الرواية العربية المعاصرة، تتجه إلى توضيح التأثير المتبادل بين الواقع والشخصية من خلال شخصية إيجابية تتفاعل مع الواقع الذي تعيشه، فتتأثر وتؤثِّر في حركته" (الورقي، السعيد،2009، ص146). فتفاعل الشخصيات في المجتمع والتأثير المتبادل جعل الشخصية تُعاني من هذا المجتمع بدلاً من أنْ يكون هذا المجتمع الحامي لها والمدافع عن مصالحها. وهذا ما جعل أعمال يوسف إدريس التي تنتمي إلى الواقعية التحليلية وخاصة في صيغتها الاجتماعية تحاول التخلص من الاعتماد على البطل الفرد بحثاً عن صيغة كلية يقوم فيها بالبطولة قطاع عريض من الشعب (الورقي، السعيد، 2009، ص157). ولم تنظر هذه الواقعية إلى الذات على أنَّها حزمة من الانطباعات والأفكار فحسب، وإنَّما هي المنتجة لهذا المجتمع والقادرة على الإنتاج. وأنَّ الفرد يُعدُّ صورة مُصغَّرة عن المجتمع وانعكاس للواقع الاجتماعي بكل ما فيه.

من الأُدباء الذين هاموا في استخدام الواقعية التحليلية في رواياتهم هو الدكتور يوسف إدريس، وهو أديب مصري معاصر وهو من ألمع أُدباء الواقعية على حد قول الكثير من الأدباء (سالم، جورج، 1973، ص61). وما يتمتع به هذا الأديب من قدرة على الزخرفة والتصوير من جهة ومن إبراز للشخصية بطريقة لم تتح لدى الكثيرين من عظام الأدباء، ولا ننسى بأنَّ هذا الأديب برع في كتابة الرواية والقصة القصيرة والمسرحية. فالرؤية الاجتماعية في رواياته هي اجتماع الصيغة الاجتماعية والنفسية وبأنهما ينظران إلى مشكلة الفرد على أنَّهما ثمرة تفاعل بين علاقات القوى المنتجة في المجتمع " مُعتمداً على المنهج التحليلي في بحثه للظاهرة الاجتماعية وفي تتبعه للمواقف إلاَّ أنَّه في أغلب الرواية كان يصدر عن حس تسجيلي يهتم بوصف الظواهر المادية للواقع"(دوارة، فؤاد، 1968، ص81). حيث يقوم بتسجيل للأحداث والمواقف "وكان اهتمامه بتفاصيل الواقع منصرفاً إلى تلك التفاصيل الثرية بالإيحاء الذي يقدم تفسيراً أو تأكيداً أو تطوراً للرؤية العامة " (الورقي، السعيد، 2009، ص157). فرؤية الكاتب وشعوره مرتبط بالظروف والخصائص العامة للمجتمع، وكلما فهمنا طبيعة ووضعية الفئة المثقفة التي ينتمي إليها يوسف

إدريس في المجتمع كلما تعرفنا وفهمنا الأزمة النفسية والاجتماعية في الإطار العام للمجتمع، وقد " اتجه يوسف إدريس في رواياته إلى تقديم كفاح الطبقة الكادحة، وتحليل معاناة أفرادها وما يتصل بهذه المعاناة من سقوط اجتماعي يضع إصبع الاتِّهام أمام القوى الاجتماعية المناوئة وخاصة البرجوازية الصغيرة " (حجازي، سمير، 1983، ص8).

وسوف تتناول دراستنا ثلاث روايات ليوسف إدريس هي: الحرام 1959م، والعيب 1962م، والعسكري الأسود 1962م. وإظهار الرؤية الاجتماعية عند كاتبها. وعلينا " فهم النص القصصي الذي يتطلب القيام بإيضاح علاقته بشعور أو رؤية الكاتب، وشعور أو رؤية الفئة أو الجماعة التي ينتمي إليها تاريخياً واجتماعياً، وأمَّا التفسير فيتطلب القيام بإبراز وظيفة هذا الشعور أو الرؤية في البنى الكلية للمجتمع" (سالم، جورج، 1973، ص 61) والتي يتفاعل معها المتلقي ويأخذ الكاتب بذلك دور المحرِّض لهذا المجتمع للدفاع عن المظلوم والوقوف إلى جانبه في محنته ورفض كل أشكال الظلم الذي تعرَّض له في الواقع.

3. الرؤية الاجتماعية في روايات يوسف إدريس (الحرام، العيب، العسكري الأسود):

لقد ظهرت الرؤية الاجتماعية في ثلاث روايات عند يوسف إدريس، لأنَّه كتبها في وقت كانت تمر به مصر بمرحلة تغيُّر النظام السياسي في منتصف القرن العشرين وتحوُّلها من الملكية للجمهورية وكعادة أي مجتمع يتغيَّر فيه النظام السياسي يحدث فيه ظلم وتسلُّط طبقة على أُخرى أضعف منها. فقام إدريس بكتابة رواياته مُصوِّراً أشكال المعاناة المختلفة لكل من شخصياتها، التي جعل منها أداة بيد مَن يملك السلطة عليه ويُذيقه مرارة فعل قد أُجبِرَ على فعله.

1.3. رواية الحرام (1959م):

1.1.3. عرض الرواية:

رواية واقعية تُصوِّر المجتمع المصري في الريف المصري "وتكشف عن أعماق النفس الإنسانية، وتصوِّر الحياة فيه تصويراً دقيقاً. " ولا يعتبر إدريس نفسه أديباً ولا قصاصاً وإنَّما يحس أحياناً بشيء يثقل

عليه ويُضنيه، فلا يجد طريقة للخلاص منه إلاَّ بأن يدوِّنه على الورق، فحاول أن يُطبِّقه في الحرام ليسجِّل على صفحة العنوان الداخلي أنَّها (قصة خاطئة مصرية)" (فؤاد دوارة،1968، ص 81).

تبدأ الرواية بالحديث عن اللحظة التي وجد فيها الغفير (عبد المطلب البحراوي) الوليد (ابن الحرام) الميت على ناحية من جسر الترعة وهو يسير ماضياً في طريق إلى العزبة الكبيرة بعدما اغتسل في الترعة وصلَّى الصبح وانطلق، وهو في طريقه فوجئ بجسم أبيض غريب يرقد على جانب من الجسر، وعندما حملق فيه خاف وظنَّ أنَّه عفريت (ابن جنية)، وفكَّر بالهرب ولكنه لم يجرؤ وأطلق قهقهة عالية إذْ أدرك أنَّه ابن حرام على وجه الدِّقة وكان الوقت بعد الفجر وبقي متردداً وخائفاً من النيابة والمحاكم حتى ظهرت الشمس وبدأ الناس يتوافدون إليه فجاء عطية ثُمَّ الأسطى مُحَمَّد وعندما نظر إلى الجنين بعينه اليُمنى قال:

"ده مش ميت يا عبده، ده مخنوق" (يوسف إدريس، 1988، ص 10). وتسرَّب الخبر إلى العزبة وتجمهر الناس وأخيراً جاء فكري أفندي المأمور وبدأ التفتيش والبحث في العزب عن فاعلة هذه الجريمة فقد أخذ يبحث المأمور من بيت لبيت تنتقل عيناه، ببيوت المزارعين الكبار وبيوت الترحيلة، ونساء العزبة جميعاً يمررن أمام عينه بكل ألوانها وأشكالها وأحوالها الاجتماعية، ولم تتوقف أنظار فكري عند البيوت. وعندما أعياه البحث وفجأة تذكر أنَّ في القرية جماعة بشرية يُسمون الغرابوة "وهم عمال التراحيل الذين يعملون بالعزب يُساعدون الفلاحين في تنظيف القطن من الدود، واللطع التي في الزرع. فيعمل الرجال والنساء لقاء أُجرة زهيدة. ويُصوِّر الكاتب هذه الشريحة من الطبقة الأدنى في المجتمع" (سالم، جورج، 1973، ص 61). وكلهم فقراء، يسعون للعمل من مكان لآخر لقاء دراهم قليلة تُبقيهم أحياء. ويظهر من خلال تقديم يوسف إدريس للقصة من "براعة واقعية في جو الأحداث من عبارات وجمل وأوصاف درامية تعرفنا على المناخ والبيئة ونسج الأحداث نسجاً سردياً مُتقناً "(أبو عوف، عبد الرحمن ،1994، ص85).

وقام إدريس بوصف الحياة البائسة لهذه الشريحة من المجتمع، الذين ينتقلون من الجنوب إلى الشمال سعياً وراء العمل؛ لِكسب ما يسدُّ رمقهم، فهم أكثر الناس فقراً في البلاد كلها، يدفعهم فقرهم لترك دورهم وقراهم سعياً وراء دراهم قليلة، يرتدون الأسمال البالية، ولهم رائحة غريبة وخِلقة كريهة، ينظر إليهم الفلاحون على أنَّهم " نِفاية بشرية جائعة مضطرة إلى الهجرة كي تعمل وتأكل وتنال حظَّاً من الحياة " (إدريس،

يوسف، 1988، ص19). وعندما لم يستطع المأمور اكتشاف الفاعلة بعد رؤية نساء الغرابوة ولم يكتشف أحداً منهم، فلا يلبث الشَّك أنْ يتناول أهل المنطقة جميعاً حيث يكتشف البعض علاقات أبنائهم الغرامية، ويكتشف البعض علاقات غرامية لزوجاتهم.. وبعد أيام انجلت الحقيقة بعد محاولة قاسية لإخفائها. فبينما كان المأمور يتجول وجد امرأة من الغرابوة مُمددة مريضة نائمة تحت ظليلة مصنوعة من كيس قديم، وحين لمسها أدركَ بأنَّها مُصابة بالحُمَّى، وأدركَ بأنَّ (عزيزة) هي أُم الطفل المخنوق، حملت به ثُمَّ وضعته وقامت بخنقه. ثُمَّ يبدأ الكاتب يسرد علينا حياة هذه المرأة التي كانت تعمل مع زوجها عبد الله حتى إذا مرض وانقطع عن العمل انقطعت هي أيضاً، وبقيت تقوم إلى جانبه تخبز الخبز للجيران أحياناً وتلم روث البهائم وتسرح بالحطب إلى المركز وتعود بقرش أو قرشين في كل أُسبوع أو عشرة أيام تحظى بيومية. وزوجها راقد في صحن الدار، وفي ذات يوم اشتهى البطاطا وما كانت لتخيّب أمله وشهوته، فمضت تبحث عن بطاطا في أرض زرعت بالبطاطا وحصد محصولها، فقد رآها أحد الشبان وهي تنكث الأرض، فبادر إلى مُساعدتها واستخراج قطع البطاطا، كان الوقت مساءً، وبعد أن انتهت همّت إلى الانصراف، ولكنها تعثَّرت بحفرة وتلقَّاها الشاب بِذراعيه، وخافت أنْ تصرخ أو تستغيث لكيلا تلفت إليها الأنظار وتصبح فضيحة لها، لأنَّه مُحَمَّد بن قمرين ابن صاحب الأرض التي تبحث عن بطاطا في داخلها." وتريد أن تُقاوم ولا تستطيع. تستميت، ولكنها يائسة...وظلَّت تئن أنين المظلوم الذي لا يخلي نفسه من مسؤولية ظلمه"(إدريس، يوسف، 1988، ص104). وهكذا حملت بالمولود المشؤوم وتحاملت على نفسها حتى وضعته خفية وخنقته، وقبل معرفة المأمور بها مرَّ عليها ذات يوم وهي تعمل فلم يشك بها إلى أن أُصيبت بحمى النفاس واشتدت وطأة الحُمَّى عليها، وراحت تهذي هذياناً مُتصلاً وتتحدث عن البطاطا.. واطمأنَّ الناس بعد انتشار النبأ، وتأكد الناس أنَّ نظرتهم للغرابوة صحيحة، وأنَّ هذه الحُثالة البشرية القميئة هي المسؤولة عن هذا الإثم.

ومن خلال تحليل الكاتب في الرواية فقد رصد التحول الذي جرى من الكراهية التي كان يحس الفلاحون بها للغرابوة ويعود الفضل لعزيزة التي عندما رأوها بعد النبأ وشعروا بالشفقة والمحبة بدل الاحتقار والتشفِّي والازدراء لما رأوا من عزيزة من شعور بالتألم والهذيان لهذه المرأة المسكينة، فصار كل واحد من

الموجودين يحمل ما يستطيع من دواء أو ماء أو طعام كما فعلت نبوية وجنيدي. واختلط أولاد الغرابوة بأولاد العزبة والفلاحون بالغرابوة، فماتت عزيزة ليوحد الناس جميعاً كلمتهم، فهم اشتركوا في الحزن والبكاء عليها وتجهيزها وإرسالها في سيارة التفتيش إلى مأوى زوجها بين دموع النساء ووجوم الرجال وعاد الأنفار إلى أعمالهم، ولكن الحاجز الذي بين أهل القرية والغرابوة قد زال. ويصوِّر المؤلف في خاتمة الرواية ما صارت إليه القرية وأفرادها بعد أن صدر قانون الإصلاح الزراعي فقد تغيرت معالمها وتبدّل نظام الحياة فيها، ولم يبق فيها إلاَّ "شجرة صفصاف قائمة إلى الآن على جانب الخليج الذي لم يغيره الزمن، يُقال أنَّها نمت من العود الذي استخلصوه من بين أسنان عزيزة بعد موتها فطمس في الطين وكان أن أصبح تلك الشجرة" (إدريس، يوسف، 1988، ص165).

2.1.3. الرؤية الاجتماعية في رواية الحرام:

بطلة الرواية عزيزة كانت تهز المشاعر بصبرها وكدِّها وكبريائها وضعفها أيضاً، وتتجلى النبرة الإنسانية في تصوير الزَّلَّة التي دفعت إليها عزيزة دفعاً، وفي ولادتها ومخاوفها ومحاولتها ستر عارها، وأخيراً مرضها وموتها الذي أزال الحواجز ووحَّد بين الغرابوة وأهل القرية، " فالحركة الداخلية التي ربطت الحوادث وخلقت حركة ونموّاً فيها وراءه على الأُسلوب الواقعي الصارم"(سالم، جورج، 1973، ص65).

لقد أخبرنا إدريس في هذه الرواية أنَّ الخطيئة نتيجة مباشرة للقحط الاجتماعي والفقر الدائم الذي عاشت فيه عزيزة، لكنه لم يقل ذلك مباشرة، وإنَّما فهمناه من خلال بنائه المحكم، وحركة الأحداث في الرواية، ومُعاناة الشخوص بها. "ومن ثُمَّ كانت (الحرام) من أنضج الروايات التي عالجت نضال الفلاح وما يُلاقيه يومياً من عنت. لما توفَّر فيها من صدق فنِّي، وقدرة على النفاذ إلى داخل نفوس الشخصيات وربط الأحداث والشخصيات معاً بالأرض والناس والعادات والتقاليد والعوامل الاقتصادية والاجتماعية" (النَّساج، سيد، 1980، ص69). فقد اتَّجه إدريس في روايته لتقديم كفاح الطبقة الكادحة، وتحليل معاناة أفرادها، وما يتَّصل بهذه المعاناة من سقوط اجتماعي يضع إصبع الاتِّهام أمام القوى الاجتماعية المناوئة وخاصَّة البرجوازيَّة الصغيرة، وكانت القصة انعكاسا لمأساة اجتماعية قائمة من خلال مُلاَّك الأراضي الذين يستبيحون أعراض الفقراء ودماءهم.

تتجلّى الرؤية الاجتماعية في مسؤولية المجتمع الذي أدّى إلى هذه المأساة (مأساة الحرام)، وهي أزمة عزيزة التي حملت حراماً، ووضعت طفلاً وقتلت ولدها عند مولده خوفاً، ثُمَّ ماتت بِحُمَّى النِّفاس. فقد بدأ إدريس روايته – الحرام – من لحظة تفجير المأساة، فيضعنا في قلبها منذ البداية. ثُمَّ أخذ بعد ذلك في الإطلال على مكوناتها وأبعادها، مُحلِّلاً إياها تحليلاً فيه من التعرية والإدانة الظاهرة بقدر ما فيه من حس إنساني يُدرك أنَّ التغير يقتضي تغيير التركيب الاجتماعي لإعادة بناء الحياة على أُسس جديدة وهذا ما حدث في نهاية الرواية. " ومن خلال مأساة خاصة أطلّ الكاتب على المأساة العامة للطبقة الاجتماعية التي عاشت فيها المأساة وشربتها وتمزقت بها" (الورقي، السعيد ،2009، ص156). والحقيقة التي أراد الكاتب تعريتها هم هؤلاء الغرابوة (عمال الترحيلة)، الذين هم بوجهة نظر الناس والمجتمع هم " نفاية بشرية جائعة مضطرة إلى الهجرة كي تعمل وتأكل لتنال حظّاً من حياة" (إدريس، يوسف، 1988، ص17). فنظرة الناس والمجتمع إليهم نظرة ازدراء واحتقار لفقرهم الشديد، مع أنَّ أجسامهم مع باقي الناس مُتشابهة والكلام متشابه. فالكاتب ينتقد المجتمع لنظرته الدونيَّة لهذه الشريحة. فهذا فكري أفندي يزجر فتاة من عمال التراحيل فارتطمت يده بثديها وروع قليلاً حين وجده بِكراً مُكتنزاً جامداً كالبكرة المطاط المنفوخة، أمَّا البنت فقد دُهِشَ حين رأى وجهها يبهت فجأة وكأنما سُحِبت كل دِمائه ثُمَّ يغمق لونه في التّو وتحمرُّ وجنتاها وتجفل وكأنَّها خجلت وغضبت. فيقول في نفسه: "يا ألطاف الله. أيُمكن أنَّ نساء الترحيلة تخجل وتغضب هي الأُخرى كبقية الآدميين؟ " (إدريس، يوسف، 1988، ص40).

إنَّ يوسف إدريس يُطلعنا من خلال تحليله على صورة أُخرى. إنَّ واقع عمال التراحيل واقع لا يشعر به أحد حتى الفلاحين الذين يعتقدون أنَّ هذه الفئة لا تنتمي إلى الآدمية بصلة. ولذلك فكم كانت دهشتهم بالغة حينما اقتربوا منهم وجدوهم مثلهم من نسيج آدمي يتنفس ويشعر ويتفاعل. والفضيحة الكبرى في هذا الواقع ليست فضيحة عزيزة، وإنَّما هي فضيحة اجتماعية تولّدت عنها فضيحة عزيزة الخاصة. فحاول الكاتب أن يُقدِّم نشأة البرجوازية المصرية الصغيرة في المجتمع الزراعي في خاتمة روايته خاصة، " وهي أهم طرف في صراع القوى بين الطبقة الكادحة ومعوقات نموها الإنساني" (الورقي،

السعيد، 2009، ص156)؛ لأنَّ التركيب الاجتماعي لأي مجتمع يتكون من طبقات، تتغوَّل فيه الطبقة الغنية على باقي الطبقات، وهنا إدانة للمجتمع وكأنَّه يدعو تلميحاً إلى الاشتراكية.

2.3. رواية العيب (1962م):

1.2.3. عرض الرواية:

أمَّا رواية العيب، فهي تصوِّر المجتمع في المدينة المصرية، وتكشف فيها عن أعماق النفس الإنسانية وتُصور فيها القطاع الأدنى في المدينة المصرية، ويلج أعماق هذه الشريحة مُوضِّحاً ما فيها من سمات كانتشار الفقر بشتَّى صوره وأشكاله وسماته، وفقدان الأمل في الخلاص طالما يسود الفقر. ففي المجتمع المدني نرى النفاق وانهيار الأخلاق والأمل الممزوج بالقلق واليأس والإحباط. يُصوِّر يوسف إدريس فيها علاقة الرجال بالنساء في العمل، وتأثير كل منهم على الآخر؛ لِيُبرز سلوك البشر. ويظهر التضاد الحاد بين في السلوك. فهو يُحدِّد بوضوح ما هو حقيقي وواقع، وما هو مظهري وخادع". وتكرار مُشتقات مادة (عاب) كما ومُشتقات مادة (حرم) ليخلق جوّاً عاماً يزيد الأحداث تكثيفاً وتسود السخرية (التناقض) في بعض المواقف عندما نسمع منْ هم غارقون في الحرام والعيب والزيف من أمثال الباشكاتب والمرأة الداعرة في حفل عيد الميلاد، يتكلمون عن العيب ويُكثرون من استعمال هذه الكلمة.. فكلمة العيب واعجبْ كيف ينطقها من يُمارس العيب" (طلبة، فؤاد، 1985، ص12)، كحديث مُحَمَّد الجندي في كلامه مع المدير: "يا بيه عيب ...أنا راجل متجوز وعندي تسع عيال..."(إدريس، يوسف، 1978، ص37).

قصة العيب هي قصة سناء الفتاة المتعلمة التي دخلت الوظيفة بريئة، امتازت بالنقاء والأمانة والصدق وكانت فقيرة، لا تمتلك الخبرة بالناس والحياة، توظفت في دائرة حكومية لإعطاء التصاريح. وكان يعمل في المصلحة الموظف مُحَمَّد الجندي وهو على النقيض تماماً مع سناء. وفجَّر هذان الثنائي التنويعات المختلفة للعيب في القصة. (سناء اللا عيب ومُحَمَّد العيب) واستطاع الجندي في النهاية استغلال حاجة سناء للنقود وفقرها من أنْ ينحرف بها ويوجهها إلى أهدافه هو وأهداف مجموعته الوضيعة من الموظفين. وعلاقة كل من سناء والجندي بالآخر تستحق الدراسة والتأمل والتفكير. فالرواية تُخبرنا أنَّ الجندي متزوج أكثر من مرة، أمَّا سناء فهي عازبة. وأُعجب الجندي بسناء من أول لحظة رآها فيها، وحاول مُضايقتها

بالكلام واستفزازها بحركاته وكلماته حتى أصبح رفضاً في البداية وعراكاً وسباباً ... ولكن العلاقة في النهاية بعد أن قبلت سناء الرشوة، أعلنت استسلامها، فطلبت من الجندي أنْ يواعدها في الكازينو.. مما أصابه ذلك بالذهول.

والاصطدام المباشر في مشهد الرفض الدرامي في القصة يُعطينا مدى قدرة الكاتب على تصوير الحياة لدى هذه الشريحة من المجتمع التي مع فقرها واحتياجها لا تُقدِّم تنازلات مهما كلَّفها الأمر، ولكن الحياة قاسية تدفع الإنسان مرغماً على ارتكاب العيب، وهو يرى ما حوله كلهم يتعاطوه فيهون بنظره ما كان يُكبره في البداية. فمثلاً مجموعة الموظفين في المكتب كلهم مرتشين، ولكن الذي يُثير العجب لدى سناء شخصية الباشكاتب الذي لا تفوته الصلاة، وهو يخاف الله ولا يعمل ما يُغضبه، وروايته لسناء من أنَّ ابنه سرق لوح تباشير فأرجعه بنفسه للمدرسة ليدل على أمانته، وعندما تسأله عن موافقته لأخذ الرشوة، يقول:" يا بنتي الأخلاق الكويسة حاجة... وأكل العيش حاجة ثانية" (إدريس، يوسف،1978، ص69).

وكأنَّ الرشوة نوع من العمل الذي يحلل له ولغيره، وأنَّه عمل يتقاضى أجراً عليه. وموقف آخر أثار العُجب في نفس سناء ألا وهو اتفاق المجموعة على عمل شائن وقراءة الفاتحة عليه، وكأنَّ أعمال هذه المجموعة المحرَّمة أعمال صحيحة يُقرأ على الاتفاق عليها الفاتحة. فهذه المواقف ساعدت سناء ولو على كره من ارتكاب العيب؛ لأنَّها وجدت الكثيرين ومن بينهم الذين يُصلُّون ويخافون الله على ما ظهر منهم يقومون به ويُحلِّلونه لأنفسهم ولغيرهم. وإضافة لهذه المواقف أو تلك يبقى الفقر المدقع المحيط بهذه الشخصية التي لا أمل لها من مفارقته وحاجتها الماسَّة لدفع رسوم دراسة لأخيها. فسناء كشخصيَّة رئيسية فعَّالة تؤثِّر في الأحداث وتؤثِّر فيها، ويُحرِّك الأحداث مُحَّد الجندي من حولها. وسناء البطلة شخصية تراجيديَّة هوت من عليائها رغم أنَّها ليست ملكة، ولكنها فتاة عاديَّة من عامة الشعب...جميلة سمراء قليلاً ذات شعر ناعم غزير لها أحلام في الثروة والغنى، مؤدبة وأدبها نابع من طبعها، يسمونها في المصلحة " البت القنزوحة بتاعت التصاريح" (إدريس، يوسف، 1978، ص79). سنها اثنان وعشرون عاماً، تعتبر حياتها الخاصة عورة ... تبدو نقيَّة مثالية كالقماش الأبيض.. تخاف الاغتصاب ... لما حدث معها في السابق

عندما حاول زوج خالتها الشاب اغتصابها. يُطاردها شرير آثم هو مُحَمَّد الجندي والذي بعد موت والده الذي كان يضربه وينصحه، عاهد نفسه على ألاَّ يستمع لنصيحة أحد سواء أكان مُخطئاً أم مُصيباً وسواء كانت النصيحة من عاقل أم من أحمق. لقد كانت حياته ضائعة وشعاره مُخالفة كل ما يُقال وهوايته الكبرى أنْ يعصي القانون، وهو يخاف الحقيقة. إنسان مُحاط بالشبهات...صيَّاد الرِّشا في المصلحة، المِزواج الآثم. تبتعد عنه سناء، ولكنه يظل يقترب منها ويُغريها، ويُحاصرها حصاراً مُحكماً ... فهو يخلق الحدث ويُحرِّكه. ويُسبب المتاعب والصعاب ويخلق التوتر العام في الرواية، فشخصيتا القصة تُبرزان اصطدام إرادتين، فتتولد الشرارات وتتتابع الأحداث بتكثيف وتوتر وتصوِّر حتمية المصير الذي ينتظر البطلة ذات الإرادة والمبدأ – رغم عدم صلاتها وعدم حفظها للفاتحة– ومعلناً انهيارها في النهاية. فالفقر لدى هذه الشريحة الفقيرة من المجتمع يُورث الوقوع في الإثم..

فالمأساة التي بدأت بإخفاق أخ سناء من الالتحاق بالمدرسة لعدم دفع رسوم المدرسة وما فعله الجندي أمام الراشي مما دفعها إلى البكاء. وعندما وجد الراشي عبادة بك سناء في المكتب لوحدها استغلَّ الفرصة واستطاع بمكر وحيلة من جعلها تنهار أمامه وتقبل الرشوة،" والتوتر الذي كانت تخاف من تأزُّمه أخذ يتلاشى أمام السلطة الآثمة الغارقة في العيب" (طلبة، فؤاد ،1985، ص 21). وهي التي كانت تقول:

" لما أموت م الجوع ما أقدرش أمد إيدي على حاجة حرام، أنا نضيفة وحفضل طول عمري، إن شاء الله الدنيا كلها تتوسخ"(إدريس، يوسف، 1978، ص70). لقد سقطت سناء في النهاية. ولكن ما يُثير الدهشة أنَّها بعد أنْ أخذت الرشوة ووقعت في الحرام، تتغير مبادئها وتعتقد بأنها اكتشفت الحياة، وأنَّها لم تكن تعرف نفسها، وأنَّها أخطأت في حق الآخرين وتعالت عليهم وخاصة الجندي الذي أشعرته بقذارته ووضاعته. والعجيب في الأمر أنْ يتأثر الجندي لسقوطها؛ لأنَّه كان يُراهن نفسه على أنَّها لن تسقط فهي فرس عربي أصيل، لن يُهزم، ولكن سناء سقطت وخسرت السباق.. ثُمَّ أصبحت آثمة، أعمالها لا تقل عن غيرها من الآثمين. وسقوطها في الحرام ليس موضع اختيار، فهي " أثناء الطعام وقبله وبعده تُحاول أن تعثر على هاتف واحد من آلاف الهواتف التي اعتقدت أنَّها لا بُدَّ مُستيقظة لديها ذات ساعة، صارخة فيها أنْ

تُعيد الرزق الحرام إلى صاحبها دون جدوى" (إدريس، يوسف ،1978، ص135). وحتى الوهم الذي يمكن أن يسكن في أعماقها بأنها تساعد شقيقها الوحيد العزيز أُسامة بما فعلته ... هو إثم وشر؛ لأنَّ أُسامة سيعيش على مال حرام.

2.2.3. الرؤية الاجتماعية في رواية العيب:

تُلقي الرؤية الاجتماعية في الرواية الضوء على طبقة الأغنياء والبرجوازيين – ممثلة بعبادة بك – في المجتمع، الذين يُفسدون ذِمم أبناء المجتمع الصالحين، فيحوّلِونهم من أهل خير إلى أهل شّر. لديهم قيم ومبادئ وأخلاق ومع ذلك يسقطون في النهاية بسبب فقرهم، ومهما حاولوا وجاهدوا لرد العدوان عن مبادئهم وقيمهم لا يُفلحون.

تناقش الرواية الخطيئة كثمرة للمجتمع في المدينة، تبدأ سناء عملها بإحدى المصالح الحكومية، ومن خلال احتكاكها بالرجل والعمل، تعرف أن زملاءها يتقاضون رشوة مقابل أدائهم لأعمال الزبائن، وإعطائهم التصاريح. وترفض مُحاولات زملائها لإقناعها بمجاراتهم، رغم فقرها ومنع أخيها من دخول المدرسة لعدم سداده المصروفات، ورغم إغراءات زميلها مُحَّد الجندي الذي يريد أن يستحوذ عليها كأُنثى جميلة. وبعد مقاومة، وشد وجذب، تنهار أمام مئة جنيه ألقاها (عبادة بك) في درج مكتبها، وفي نفس اللحظة تنهار أمام زميلها مُحَّد الجندي، وتُبادر بتحديد موعد للقائه خارج العمل." وتبدأ المأساة (مأساتها النفسية)، كانعكاس لمأساتها الاجتماعية والمادية، فما يزال القديم قوياً، قادراً على أنْ يغتال الجديد الذي يرزح تحت آلاف الضغوط للوقوع صيد سهل كما وقعت هذه الشخصية والذي حاولت المحافظة عليه، لم تستطع الاحتفاظ به إلى النهاية "(النَّساج، سيد، 1980، ص18).

والرؤية الاجتماعية تكمن في مسؤولية المجتمع الذي أدَّى إلى هذه المسألة (العيب)، وهي أزمة سناء الذي خضعت للرشوة لحاجتها وفقرها والمدرسة التي تريد بدل مصروفات لأخيها أُسامة لقاء مئة جنيه من جهة والضغوطات التي كانت تُمارس بحقها من زملائها وخاصة مُحَّد الجندي من جهة أُخرى، مما جعلها تُسلِّم وتقبل الرشوة أولاً وتسقط في الهاوية، فيتغيَّر سلوكها وتتغيَّر بعد أن برَّرت كل ما فعلته لنفسها، وأنَّه ليس حراماً وأنَّها لامت نفسها على التعالي الذي كانت تُشعر زملائها به لرفضها الرشوة في البداية. إنَّ

هذه الرواية تتحدث عن القيم الأخلاقية لهذه الشريحة غير الثابتة على مبادئها، والتي ضعفت أمام المغريات في النهاية نتيجة للفقر التي تُعاني منه، والذي يُسبِّب الخلل الاجتماعي ويخلق الجو التراجيدي الذي تعكسه المأساة. فنجد أبطال يتغيرون في نهاية القصة، ومنهم مَنْ يفكِّر بعمق في أخطائه.

والفرق الجوهري بين رواية الحرام ورواية العيب " أنَّ عزيزة – في الحرام – بالعيب غرقت في المأساة حتى قضت عليها، بينما سناء في العيب غيرتها المأساة، حوَّلتها من الطهر والبراءة إلى الرشوة واللامبالاة (لقد فقدت عذريتها الأخلاقية) وهذه مأساة المدينة الأخف والأهون. وسناء كمثلنا متعلمة قادرة على تبرير أخطائها، وشعورها بالذنب أغرقها فتعيش في خطيئتها كما كانت تعيش أيام البراءة والطهر، أمَّا عزيزة في القرية في الحرام فلا حياة لها بعد خطئها" (النقاش، رجاء، د.ت، ص149) لتلقى الموت يتربص بها وإنْ لم تمت، فالسجن مصيرها.

3.3. رواية العسكري الأسود (1962م):

1.3.3. عرض الرواية:

من روايات يوسف إدريس الواقعية التي تحمل في طياتها رؤية اجتماعية تظهر جلية في تصوير الشخصيات والأحداث مُعمِّقاً دور الشخصية والدور الذي تتقمصه في المجتمع. هذه الرواية الواقعية تتحدث عن المجتمع المصري في وقت كانت الدولة فيه في حالة اضطراب وعدم استقرار مما اضطرها ذلك إلى فرض الأحكام العرفية، وإلقاء القبض على كل ما تدور الشبهات حوله بالعمل السياسي، وكان أغلب المسجونين السياسيين من طلبة الجامعات والمتعلمين الذين ثاروا على الحكومة. ولقاء ذلك فقد وظَّفت الحكومة عدداً من العساكر لتنكِّل بهؤلاء المساجين السياسيين. وتتحدث الرواية عن العسكري الأسود وهو نموذج أسهم الواقع المعاش في إبرازه وتهيئته.

صاغ يوسف إدريس روايته صياغة ملحمية، والتي تُقدَّم من خلال سرد الراوي والذي كان يسمح بالاستطرادات، والتعليق والتدخل، وإصدار الحكم، مع الاحتفاظ بخاصية الشخصية منذ البداية، وهي سمات واضحة في القصة الواقعية في مراحلها المختلفة، وتتحرك الشخصية عندما تتحدث في حوارها مع غيرها.

" والحوار يُقدَّم على أنَّه صيغة أُخرى للسرد، وبهذا يحقق الكاتب خاصية ملحمية مهمة في البناء الفني عندما كان يتحدث جزئياً بشخصية الراوي، ويجعل شخصياته تتحدث جزئياً في حوار مباشر"(الورقي، السعيد، 1991، ص58-59). الشخصية المحورية في الرواية "هو عباس محمود الزنفلي، وهو فلاح قوي البنية، أسود الوجه، تزوج من نور وانتقلت معه إلى مصر (القاهرة)، ولم يُرزقا أولاداً، فكانت هذه المشكلة التي تلح عليه وتضايقه" (إدريس، يوسف، 1982، ص68). عمل في البوليس السياسي، فكان يُذيق الموقوفين مختلف أنواع العذاب. وأصبحَ هذا العسكري بما كان يجنيه من الضباط ومن طالبي المعروف لقاء مساعدة يُقدمها لهم يُعطونه مُقابل معروفه حلواناً فتحسَّن وضعه المادي.

بدأت القصة بالحديث عن الأوضاع السياسية في مصر أثناء حكم جمال عبد الناصر والمتمثلة برفض الشعب لهذه الحكومة، فنرى أنَّ طلاب الجامعات من أبرز المعارضين من الشعب، ويتبين ذلك من خلال سرد الراوي وهو شخصية في القصة مع صديقه شوقي الذي كان من أبرز الطلاب في الحديث عن السياسة وافتتان الطلاب بأقواله وتجمهرهم حوله، وكلا الراوي وشوقي طالبان في كلية الطب... وشاءت الأقدار أنْ يُلقى القبض على شوقي، ويتم تعذيبه من قِبَل العسكري الأسود، وبعد خروج شوقي من السجن وانتهاء الأحداث، تغيرت شخصية شوقي وأصبحت شخصية هادئة رتيبة كثيرة الصمت، وأصبحت شخصيته مهزومة مُضطربة، وسبب ذلك الرعب والتعذيب الذي ذاقه من قِبَل العسكري الأسود الذي كان بالنسبة للسياسيين من الشعب يُشكِّل أُسطورة ورعباً يخافونه مما جعل ذاته تتضخم، ويتقمص دور المعذِّب الذي لا يرحم، وجعله ذلك يتفنَّن في تعذيب هؤلاء الشبان بحرية حتى إذا خاف الضباط من أنْ يقتل أحد الموقوفين لبطشه وعدم تحكمه، كانوا يُدخلون معه في غرفة التعذيب اثنين من العسكر كي يمنعوه من إزهاق روح هذا الموقوف. فقد كان يشعر وهو يُعذِّب الموقوف وكأنَّه واجب عليه يجب القيام به، وكأنَّه يتعذَّب ويُعذِّب نفسه، فهو يضرب المسجون ويصرخ، وكأنَّه يتعذَّب بعذابه، وكأنَّه يُضرَب وليس يَضرِب.

كقول التمرجي يصف حال العسكري الأسود الذي أصبح يصرخ ويعوي كما كان وهو يُعذِّب الطلبة:

" ده خلاص يا بيه.. الراجل بقى يهبهب زي الكلاب ويعوي زي الديابة"(إدريس، يوسف، 1982، ص8). ومع الوقت أصبحت شخصية العسكري الأسود هي الأُخرى في تغيُّر، ولكن إلى الأسوأ، إذْ أصبح سيء المزاج، دائم المهدِّئات، يُداوم على شرب الحشيش، وأصبح يُكثر من الإجازات المرضيَّة، فقد كان يتعذَّب بتعذيب غيره، حتى أصابه الجنون. وتنتهي القصة بذهاب الراوي وشوقي إلى بيت العسكري الأسود بصحبة التمرجي، والحديث إلى زوجته عن حالته وعن حياته الماضية. لقول التمرجي لشوقي عندما أشار على المريض:" ما هو ده اللي كانوا بيسمُّوه العسكري الأسود يا بيه، ولم يُجِب شوقي، ولم يقل شيئاً "(إدريس، يوسف، 1982، ص35). ورأوا شهادات التقدير المقدمة إليه من البوليس السياسي والتي كانت تزين كلماتها جدار البيت، " تقديراً لتفانيه في خدمة مصالح الوطن العُليا" (إدريس، يوسف، 1982، ص95).

وهنا تظهر المأساة، مأساة الشخصية والتي ساعد المجتمع، وفقر الشخصية، والدور الذي تتقمصه من المحافظة على استقرار الحكومة وأخذ الناشطين وتعذيبهم. والأصل والواقع في الدور الذي مارسه هذا العسكري الأسود هو ظلم المجتمع. لقول إحدى النساء لزوجة العسكري الأسود عندما انتابته لحظة هيجان هستيرية ونوبة عنف ذاتية وأخذ بقطعة لحم من يده بين أسنانه ودماؤه تنزف من يده: "لحم الناس يا بنتي ...اللي يدوقه ما يسلاه...يفضل يعضُّ إنشا الله ما يلقاش إلاَّ لحمه...الطفْ يا رب بعبيدك" (إدريس، يوسف، 1982، ص97). فالحالة التي آل إليها العسكري الأسود وهو ملتصق بالحائط على شكل كرة بشرية هو مأساة، وهذه المأساة تظهر في المشهد الذي قاله الراوي: " لم يكفْ شوقي عن تقدُّمه وعوائه إلاَّ حين فجأة فتحت الكرة البشرية الملتصقة بالحائط، والتي لم يعد لها مجال للتراجع، فتحت فمها وأطلقت ذلك العواء الذي أخافنا ونحن في الصَّالة، عواء اختلطَ بعواء شوقي، وعلا حتى أسكته، وحتى أوقفه في مكانه لا يتكلم أو يصرخ أو يصدر عنه صوت. عواء مرعوب أول الأمر يستغيث، ثمَّ باك، ثمَّ عال مجنون مرتفع" (إدريس، يوسف، 1982، ص92).

وتنتهي القصة بهذه المأساة البشرية التي صنعها المجتمع لأفراده، أمَّا شوقي ففقده للأمن البشري جعله إنساناً طماعاً أنانياً خائفاً مضطرباً. وأمَّا العسكري الأسود فقد تمثل دوره بظلم المجتمع وتعذيب أبناءه لتفانيه بالواجب والوظيفة الموكلة له والتي صنعت مأساته وانتهت به إلى الجنون.

2.3.3. الرؤية الاجتماعية في رواية العسكري الأسود:

ترجع أسباب المعاناة في هذه الرواية إلى الفقر للطبقات الكادحة والحاجة الملحَّة مُحاولة للعيش وخاصة لعدم وجود أمل في الحياة. " فالمجتمع وقوانينه هو المسؤول عن ارتكاب الجرائم أو المعاصي على الأفراد" (الورقي، السعيد، 2009، ص157).

المجتمع هو المسؤول عن الصراع في نفس الشخصية، ودور المجتمع بالتَّحوُّل والتأزُّم وبروز العقدة التي سببها المجتمع في كل الرواية. فالشخصية في هذه الرواية قادمة من الريف المصري والمتمثلة بالعسكري الأسود، هاربة من الفقر والبؤس إلى المدينة، وعملت بالشرطة، ونتيجة لكفايتها في أداء واجباتها، طلبتها الشرطة السياسية. وبدأ التأزم والمعاناة لهذه الشخصية عندما طُلِب منها تعذيب الموقوفين سياسياً كأمثال شوقي من طلاب الجامعات. حيث تغيَّرت وأصبحت تشعر بأنها بلباسها العسكري صاحبة سلطة وجبروت، " وشعر في بادئ الأمر بالسلطة والواجب، وأصبحت الوصولية لديه مرضاً يضرب التكوين الخلقي والقيمي للإنسان"(حداد، نبيل، لغة الآي آي ليوسف إدريس، 1995، ص2892). ونجد الرؤية الاجتماعية ظاهرة للعيان في الرواية في قول شوقي للراوي (صديقه):" أتعرف أنَّكَ حين تؤذي غيرك تؤذي نفسك دون أنْ تدري؟ " (إدريس، يوسف، 1982، ص96). والأذيَّة ليست جسدية على الأغلب فقد تكون نفسيَّة، كما حدث مع العسكري الأسود، وهي أكثر إيلاماً من الجسدية، حيث أصابه الجنون بعد ذلك.

ويقول شوقي مؤكداً أنَّ العسكري الأسود عندما كان يُعذبه كان يتعذَّب هو الآخر بقدر عذابه لشوقي:

" دع الضارب يضرب فيده التي تضرب تمتد أيضاً إلى ذات نفسه. ولم يقتصر الأمر على التفكير..

الإيلام

سلاح ذو حدَّين..."(إدريس، يوسف، 1982، ص96). لقد استغلت الحكومة الظالمة هذا الفقير

– الفلاح الجاهل – ليكون أداة يضرب بسوطها بلا رحمة باستخدام ذريعة الواجب، وهو ليس مُختاراً في الإثم، ولكنه مُجبراً على فعله. ولا ننسى دور المجتمع الذي ضخَّم ذات العسكري الأسود، فجعله يعمل بقسوة على إيذاء الكثير من الشبان جسمانياً ونفسياً، وأوصله عمله – في النهاية – إلى الجنون.

يوسف إدريس في رواياته الواقعية التحليلية " يلحُّ على موقف التعرية الذي يحمل موقف الإدانة بشكل غير مُباشر. ومن هنا لم يكن هناك مجال في رؤيته لبطل إيجابي يقود حركة التغيير، والذي ظهر هذا البطل عند الشرقاوي وهو الشعب أو قطاع عريض فيه"(الورقي، السعيد، 2009، ص157). وهذا يجعلنا نستخلص رؤية يوسف إدريس الاجتماعية من أنَّ المجتمع هو المسؤول عن المعاناة والمأساة لأبطال رواياته، وعلى المجتمع أنْ يقوم بدور البطل الإيجابي بمنع جعل الفقر والحاجة عند أبطاله سبب المأساة والموت كما حدث لعزيزة في رواية الحرام. أو السقوط والتحوُّل غير الأخلاقي والقيمي كما حدث لسناء في رواية العيب. أو العذاب والجنون كما في رواية العسكري الأسود، لتؤكد هذه الروايات بأنَّ الاشتراكية هي الحل لنهضة المجتمع والقضاء على كل أشكال الاستغلال والظلم فيه.

3. خاتمة:

نستنتج من كل هذا أنَّ الأدب الذي كان يدعو إلى الاشتراكية عند كثير من الروائيين المصريين كنجيب محفوظ ويوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوي، كان له دور كبير في تغيير فكر المجتمع المصري والرجوع عن الظلم الذي كان المجتمع يُلحقه بالكادحين. كان يوسف إدريس يهدف من إبراز الواقع تنقيته وتبرئته من دم الإنسان. والرؤية الاجتماعية عنده في رواياته ليس المسؤول عنها القدر وحده، فهو يرى بأنَّ مسؤولية المأساة في الروايات كلها قائمة على المجتمع المتمثل بالتخلف والفقر والحرمان وتغوُّل السلطة السياسيَّة والطبقة البرجوازية على الكادحين. وإذا كانت المأساة قبل الثورة وجدت مكانها في المجتمع، فيجب على الحال أنْ يتغيَّر بعد الثورة فيتوقف الظلم وتسود المساواة. فعلى العهد الجديد أنْ يُنصف في الدفاع عن هؤلاء الكادحين، ويُعطيهم حقوقهم كأفراد في هذا المجتمع. فما يُنظر إليه على أنَّه قدر الإنسان

ومصير محتمل يستطيع الإنسان إذا أخلص لإنسانيته أنْ يُغيِّر اتجاهه، ويدرأ عنه المصير الكالح وآلامه التي سببها استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وتقصيره تجاهه هو في الحقيقة دور على المجتمع أن يأخذ دوره في منع سقوط ومعاناة الطبقات الفقيرة والمهمَّشة فيه.

ظهرت الرؤية الاجتماعية في روايات يوسف إدريس بشكل واضح في نظرته للمجتمع المصري المتشكل بعد سقوط الملكية كنظام سياسي وقيام الجمهورية على يد العسكريين، وما تبع ذلك من فقر في الطبقات الكادحة المهمَّشة واستغلالها على يد الطبقة البرجوازية الصغيرة المتشكّلة حديثاً.

وإدريس ينظر إلى دور المجتمع السلبي ويُصوِّر ما يحدث في الريف والمدينة من مآسٍ بصورة العالم والشاعر بهموم الفقراء، ويدعو المجتمع ليهب لأخذ دوره للدفاع عن هذه الفئات التي ترتكب الجرائم في حقها وحق غيرها من البشر كما ظهر في رواياته، وإدريس ليس صاحب الرؤية الاجتماعية لوحده، بل هو يتبع لطبقة المثقفين في المجتمع الذين يحملون هموم التغيير وإصلاح وتطوير مجتمعاتهم. وإدريس جزء من هذا المجتمع ووظيفته حماية مجتمعه مما يعلق به من عيوب ومآسٍ واستبداد. لذلك قام إدريس بتصوير معاناة الطبقات الكادحة بطريقة تحليلية تفصيلية حتى يجعل القرَّاء وأفراد المجتمع يُشيرون إلى أسباب المعاناة ويتحققوا من أنَّهم مسؤولون عن الدفاع عن هؤلاء المساكين التي اضطرتهم ظروفهم الصعبة إلى الوقوع. فهو يطلب من المجتمع أن يأخذ دوره الرافض وأنْ يأخذ موقفاً إيجابياً فيمنع كل ذلك، ويقف مع الفقراء ويُنصفهم من الأنظمة السياسية الظالمة ومن الطبقة البرجوازية الصغيرة التي تشكلت بعد تغيير في أنظمة الحكم الدكتاتورية كما حدث في مصر بعد إسقاط الملكية وقيام الجمهورية. " فمراحل الانتقال وما يُرافقها من اضطرابات اجتماعية وقلق عميق في النفس البشرية ومحن من شأنها، كما تؤكد شواهد عديدة في الأدب العالمي، أنْ تدفع بالرواية العربية نحو ملحمية جديدة، تقدم النصوص الأبطال، وليس البطل الفردي وهو يختزل النص، إلى صراع في الأعماق الدفينة لذاته" (السيد، موسى، 1988، ص92). فيوسف إدريس يُدين موقف المجتمع السلبي تجاه ما يحدث، وقد قالها بطريقة غير مُباشرة في رواية الحرام بعد أنْ أشفقَ الناس على عزيزة وقدموا لها الماء والأدوية، واختلط أطفال الفلاحين وأطفال عمال الترحيلة. وحدث أيضاً في رواية العيب عندما قدَّم التاجر رشوة لسناء فانهارت منظومة القيم التي تربت عليها، وأيضاً حدث

مع العسكري الأسود الذي أجبره فقره للالتحاق بالجيش وتعذيب الطلبة والمتظاهرين ليكسب عيشه، فأوصله تعذيبهم لتغييرهم وليتغيَّر معهم هو الآخر ويصيبه الجنون. وعليه فرؤية الكاتب تتلخص بتوعية المجتمع ليأخذ دوره الإيجابي وحماية الكادحين من التغوُّل عليهم وإنصافهم في وطنهم.

4. قائمة المراجع:

1. أبو عوف، عبد الرحمن، (1994)، يوسف إدريس وعالمه في القصة القصيرة والرواية، الهيئة المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة.
2. إدريس، يوسف، (1988)، رواية الحرام، مكتبة مدبولي، القاهرة.
3. إدريس، يوسف، (1978)، رواية العيب، دار العودة، بيروت.
4. إدريس، يوسف، (1982)، رواية العسكري الأسود، مكتبة مصر، القاهرة .
5. دوارة، فؤاد، (1968)، في الرواية المصرية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
6. الورقي، السعيد، (2009)، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.
7. – الورقي، السعيد، (1991)، القصة والفنون الجميلة، (ط1)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.
8. حجازي، سمير، (1983)، الرؤيا الاجتماعية في قصص نجيب محفوظ من (1967-1980)، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة والارشاد القومي في الجمهورية العربية السورية، سوريا، السنة 23 (253).
9. حداد، نبيل، (1995)، لغة الآي آي ليوسف إدريس (دراسة تحليلية)، مجلة دراسات (الجامعة الأردنية، مجلد 22 أ (06).
10. طلبة، فؤاد، (1985)، يوسف إدريس والتابو، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر.
11. مرتاض، عبد الملك، (1998)، في نظرية الرواية، مجلة عالم المعرفة، 240، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر/ كانون الأول.
12. النَّساج، سيد، (1980)، بانوراما الرواية العربية الحديثة، (ط1)، دار المعارف، القاهرة.
13. النقاش، رجاء، (د.ت)، يوسف إدريس بين العيب والحرام، رجاء النقاش وآخرون، يوسف إدريس بقلم كبار الأدباء، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، مصر.
14. سالم، جورج، (1973)، المغامرة الروائية، منشورات اتحاد الكتاب العربي، بيروت.
15. السيد، موسى، (1988)، مرجعية الرواية واتجاهات النقد في الثقافة العربية المعاصرة، مجلة الوحدة، مجلة المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، المغرب، السنة 05 (49)، تشرين الأول.